مصطفى خياطي

علاقات الأمير عبد القادر مع اليهود

منشورات ANEP

مقدمة

كان الأمير عبد القادر يتميز بخصال إنسانية عظيمة، فقد كان متسامحا ورحيما بأهل الكتاب المسيحيين منهم واليهود، ومع أنه لم يكن هناك أقلية مسيحية بالمعنى الحقيقي في المعسكر العربي، إلا أن قدوم عدد كبير من الفارين، العلاقات التجارية، الدبلوماسية أوالعسكرية التي أقيمت مع بعض الشخصيات من الديانة المسيحية قد ضاعفت علاقات الأمير مع المسيحيين.

لم يقم الأمير يوما بإجبار شخص من ديانة أخرى على الدخول في الإسلام، سواء كان فارا أوسجينا، صحيح أن كثيرا من الفارين فضلوا إظهار دخولهم في الإسلام، حتى يحصلوا على عدد أكبر من الامتيازات، لكنهم لم يجبروا أبدا على القيام بالعبادات الإسلامية، ولحمايتهم أكثر أصدر الأمير فتوى تحتوي على عدد من القوانين تنظم تصرفات العرب المواطنين والجنود تجاه الفارين الذين يلتقونهم، فقد كان مسموحا لهم بالتدخين في حين كان ذلك ممنوعا على المسلمين، ولم يكن لمن أراد أن يحتفظ بعقيدته أية معاملة خاصة.

في كثير من الأحيان كان اليهود يمدونهم بالخمر دون أن يتعرضوا لأي استهجان، حتى أنه في بعض الأحيان كانت السلطات الجزائرية هي التي تطالب اليهودالذين يأوون الفارين بأن يلبوا حاجياتهم حتى من النبيذ، مثلما كان الحال مع دون خوزي الذي كان مسؤولا عن مسبكة تلمسان، أوسكوت الضابط الانجليزي الذي استدعاه الأمير.

لقد تحصل العمال الذين طلبهم الأمير للعمل في ترساناته على عقود عمل، وعندما عادت الحرب من جديد وأظهروا رغبتهم في العودة إلى فرنسا، تم تسريحهم وإيصالهم إلى صفوف الفرنسيين، حتى أنهم حصلوا على مستحقاتهم التي وعدوا بها، رغم أنهم لم يكملوا العمل الذي اتفق عليه في عقودهم.

كان الأمير يعامل هؤلاء بكثير من الحلم والتفهم، فعندما هرب حميدو الفار الألماني، وواحد من أوائل المدربين في جيش الأميرإلى وهران، أقتيدإلى معسكر تطبيقا لمعاهدة ديميشال، وقد نجح في إقناعالأمير أن هروبه من المعسكر العربي، كان بسبب تهميشه وقلة الاحترام التي كان يتعرض لها، وقد خرج من الأمر دون عقاب كبير ولم يكن حميدو المثال الوحيد على ذلك، فقد اعتقل ليون روش في تلمسان بتهمة الهرب إلى معسكر العدووتم إرساله إليالأمير في المدية، وقد استطاع روش تهدئته وحصل على مكانة هامة عنده عوض العقاب الذي كان بانتظاره.

كان الأمير يحكم على الأشخاص وفقا لقدراتهم وليس لدياناتهم، وقد طبق هذا المبدأ على الدوام حتى على مستوى جيشه، حيث كان يستدعي الفارين لتأطير جند مشاته وتدريبهم.

كان مضيافا للغرباء ويحمل لبعضهم عاطفة خاصة على غرار دومولان ومونسال، المحاربان الجريئان. كان يعترف بجميل الأشخاص الذين ساعدوه مثل السيد جافاني ممثله في مدينة الجزائر والذي رغم رفض السلطات الفرنسية الاعتراف به كممثل له تلقى كل الدعم من الأمير الذي رفض استبداله.

علاقاته مع نويل مانوسي، كانت من الأكثر ودية، حيث كان يوفر ترحيبا حارا لكل ضيوفه وكان يمنحهم كل الدعم والمساندة مثل باربوجر وبوليشون...

كان الأمير يحترم أهل العقيدة المسيحية احتراما كبيرا وتشهد على ذلك علاقاته مع الأسقف ديبيش، وبديله سيشي، أوالأسقف بافي الذي خلف سيشي.

لم تكن العلاقات مع اليهودتختلف عن نظيراتها مع المسيحيين، بل حتى أنها كانت أكثر ودية بالنظر إلى علاقات الجوار المتبادلة القديمة، في حين كان الفرنسيون يحتقرونهم، إذ وجدت طوائف يهودية في كل المدن الجزائرية، وكانت تنظم نفسها بنفسها، تلتزم بقوانينها الداخلية، عدالتها، مدارسها، دون تدخل من السلطات العربية.

كانت علاقات الأمير كثيفة خاصة فيما يتعلق بمجال التجارة التي كانت مجال يبرع فيه اليهود، فقد مونوا المعسكر العربي، فكانوا يتوسطون لدعمه بالسلاح، الذخيرة والمواد الأولية الضرورية للصناعة الحربية التي كان الأمير يجهز لها.

لم تكن العلاقات في مجال الدبلوماسية والجوسسة بالأقل أهمية، فقد كان يهودا بن دوراند من عين كممثل عن الأمير في مدينة الجزائر خلال قيادة الكونت ديروت ايرلون، وهو نفسه من صاحب ميلود بن عراش، المبعوث الخاص من الأمير خلال زيارته إلى باريس، حيث كلف بإيصال هدايا الأميرإلى ملك فرنسا. ولم يكن بن دوراند الوحيد فقد استخدم الأمير الكثير من اليهودكممثلين له في وهران، باريس، مارسيليا وغيرها.

كما كان الأمير قدوة قبل حتى الاتفاقيات الدولية التي تحمي الأقليات، من خلال عنايته بالطوائف غير المسلمة في الجزائر، فقد كان يتعامل معهم مثلما يتعامل مع المسلمين بل أفضل بقليل نظرا لكونهم أقلية، وبالنسبة للأكثر حساسية مثل الفارين، فقد سن قوانين تحدد طرق الحماية التي يجب أن تتوفر لهم.

الأمير: رجل منفتح على زمانه

كان الأمير عبد القادر رجلا منفتحا على الحداثة، فما هي الظروف والعوامل التي أثرت فيه والتي جعلته يفتح عينيه على ما يحدث في الضفة الشمالية للمتوسط؟

تحدث عدد كبير من الكتاب عن حجه سنه 1827 وبالخصوص عن الشهرين الذين قضاهما في مصر، ولم يكن عمره حينها يتعدى التاسعة عشر، وتحدثوا عن الانبهار الذي اعتراه من انجازات محمد علي: «نعرف أيضا أنه بقي شهرين في القاهرة سنة 1827، وبالتحديد سنة بدأ الباشا محمد علي بالتمرد على الباب العالي بعد معركة نافارين الكارثية، فلم يتوقف عن الاهتمام بما يعيشه، الاستفسار عن عمل المصالح الإدارية، الحضور المناورات العسكرية، سؤال المصريين عن تنظيم الاحتكارات، تسيير الترسانات، استخدام المتعاونين التقنيين، لقد كان منبهرا بانجازات النهضة المصرية، وعبّر عن إعجابه بمحمد علي الذي بدوره كرّمه لاحقا عن منجزه.» (Koulaksis A et Meynier G., L'Emir Khaled, premier zaim, l'Harmatan, Paris)

يجب حتما إضافة عوامل أخريإلى هذا، هل كان متأثر بحمدان خوجة؟ مؤلف كتاب المرآة وأحد أهم وجهاء الجزائر في وقته، التاجر الكبير الذي يعرف أوروبا ويتحكم في الكثير من اللغات؟ «تأثر الأمير كثيرا بآراء حمدان خوجة، صاحب الذهن المنفتح، العارف الجيد بهذه «الأوروبا» أين تتأسس الثورة الصناعية وأين تتكون القوميات» (Koulaksis A et Meynier G., L'Emir Khaled, premier zaim, l'Harmatan, Paris)

غير أن الأمر الأكيد هو الصعوبة التي لاقاهاالأميرفي الميدان في مواجهة الفرق الفرنسية، تنظيم هذا الجيش الذي كان يعتبر وقتها الأول في العالم، في الانجازات المحققة بفضل الدهاء العسكري لهذا الجيش:

التحصين، نقطة دفاع حامية منطقتي وهران ومستغانم، المحمية بالمدافع والتي لم يستطع هو ورجاله اختراقها رغم كل الشجاعة التي وظفوها من أجل ذلك.

وفي وجه كل هذه التحديات ما الذي كان يمثله المعسكر العربي في 1832؟ انه الأمير من سيصف الوضعية الجزائرية في 1832 لدوماس القنصل السابق لفرنسا بمعسكر، بعد معاهدة التافنة والذي أصبح سجانه في حصن لامالج Lamalgue في فرنسا: حيث كانت تتميز بسلطات محلية متعادية، حروب أبدية بين القبائل، حياة سياسية غائبة يحكمها قانون الأقوى، في غياب التجارة والأمن، ولم يكن أحد يدفع ضرائبه» (Bellmart A., Abd El Kader, Hachette Ed, Paris 1863).

كما يجب أخيرا إضافة أن: «مسلمي المدن الساحلية الذين هربوا من منطقة الاحتلال الفرنسية، كانوا تائهين في الريف مع عائلاتهم الغارقة في الذعر واليأس بينما كان العرب يترصدونهم ويسرقونهم بلا رحمة» (Habart, Abdelkader par le colonel Churchill, p.62)

وقد كان الأمير كرجل رحيم جدّ متأثر بما حل بهم.

كان عبد القادر مجبرا على اختيار طريق المقاومة و هو مدرك للوضعية الكارثية في مواجهة تحديات عظيمة، عبد القادر لم يختر لقد تم اختياره، وبالرغم من صغر سنه إذ لم يكن يتجاوز حينها الثانية والعشرين، وعدم تجربته السياسية والعسكرية أوحتى الدبلوماسية إلاّ أن الأمير سيظهر عبقريته الفذة، لقد أقام تشخيصا سريعا لوضعية بلده والحل هو بناء دولة قوية تتخطى الصراعات القبلية والجهوية، مع محاولة احتواء وبالوسائل المتاحة العدوالذي كان قد استولى على عدد من النقاط الساحلية في البلد منها مدينة الجزائر، بونة، وهران...

وكان التحدي الأول له هو الحاميةالعسكرية الفرنسية التي تحتل مرسى الكبير ووهران، تحت قيادة ديميشال ، وقد سير الأمر بشكل جيد

لدرجة أنه حمل القائد إلى طلب إنهاء الحرب فيما يعرف بمعاهدة ديميشال في 24 فيفري1834.

كان الأمير بحاجة إلى هدنة ليعيد تنظيم جيشه تماما، فقد كان عليه أن يؤسس بشكل سريع لدولة حديثة وهو مدرك بأنه لم يحصل سوى على هدنة وبأن الحرب ستعود ربما أسرع مما كان الناس يعتقدون حينها، وكان الأولوية تعود بشكل طبيعي للجيش الذي كان مشكل حينها أساسا من المتطوعين الذين أرسلتهم القبائل المنضوية تحت لوائه، والتي كانت تهب إليه في كل مرة، وكان الأمير أن يدخل عليهم النظام والانضباط، وهما عاملان أساسيان يفتقدهما هذا الجيش الذي يستطيع عادة أن يضم عشرة ألف فارس، مغتنما العلاقات الجيدة التي استطاع أن يبنيها مع ديميشال، جعل أعضاء القنصلية الفرنسية في معسكر يشاركون في الأمر: قائد الكتيبة عبد الله حسبون وضابطين من قيادة الأركان: السيد مالجيني والسيد رادوبورت، الذي عين رسميا من أجل الأشغالالإحصائية والجغرافية: (Desmichels L.A., Oran, librairie militaire d'Anselin Ed, Paris 1935145 p.)

ليساعدوه على تكوين كتائب حسب التقنيات الحربية الحديثة.

وبعودة السلم ومدفوعين بحب الاستطلاع وتلهفهم بسبب حياتهم التعيسة في وهران، مستغانم وأرزيو، راح الضباط الفرنسيون يتدافعون لزيارة معسكر، الأمر الذي دفع بديميشال إلى محاولة تبرير نفسه في ما بعد لأنه أرسلهم لتكوين فرق الأمير،(Desmichels L.A., Op., Cité. P 227).

لقد مست الإصلاحات التي قام بها الأمير كل المجالات، حتى الاتصالات أخذت اهتماما خاصا في بلد يتميز باتساعه الفائق، ففي كل مكان من التراب الوطني نصبت نقاط تحول للبريد، أين يمكن لحامل البريد أن تغيير دابته ويتوقف للأكل، الاستراحة وإطعام وسقاية حصانه.

نقاط التحول تلك كانت تستخدم في إطار إنساني حتى من طرف الفرنسيين، الذين لم يحتلوا سوى النقاط الساحلية، وهكذا، وبينما كان ديميشال في رحلة إلى مدينة الجزائر لمقابلة الحاكم العام، ضربت الكوليرا بأطنابها مرسى الكبير بوهران، فلجأت حامية وهران التي لم تكن تملك سوى الطريق البحري من الأمير بأن يوصل رسالة مستعجلة إلى الجنرال ديميشال: «كنت أنوي خلال الأيام التي أردت قضائها في مدينة الجزائر أن أحدثه «الحاكم» مرة أخرى عن هذا المشروع[توسيع السلم في البلاد]، عندما جاء فرسان الأمير لإحضار برقيات من الجنرال فيتس–جايمس، التي تبلغني أنه لم يعد هناك شك من طبيعة الوباء الذي مس العدد الكبير في مرسى الكبير وفي وهران و هو الكوليرا الأسياوية.» (Desmichels L.A., Op., Cité. P. 179.)

لقد قطع ديميشال أيامه في مدينة الجزائر وعاد في اليوم التالي إلى وهران عبر البحر، وقد كانت الوضعية التي واجهته هناك كارثية « لقد قضى بسبب العذابات الفضيعة لهذا الوباء كل من الجنرال فيتز[نائبه]، ستة وعشرون ضابط من كل الرتب وحوالي خمسمائة ضابط صف وجندي.» (Desmichels L.A., Op., Cité. P. 183).

حتى يمنح لجيشه خبرة أكبر، أعطى الأمير موافقته المبدئية للجنرال ديميشال الذي طالبه بإرسال وحدة عسكرية من ثلاثة آلاف رجل إلى اسبانية بشرط أن يتكفل بتكاليف السفر تنقله، وإقامتهم « (Desmichels L.A., Op., Cité. P. 227).

من ناحية أخرى يريد الأمير الحصول على التقنيات الحديثة لذلك الوقت في مختلف المجالات، فطلب من ديميشال مساعدته لإنشاء طريقة تسمح بإرسال متربصين عرب إلى مارسيليا، ولكن لسوء الحظ، الحاكم العام يرفض هذا الطلب: (CF : Desmichels L.A., Op., Cité. P. 177 (du gouverneur général dépêche du 17 décembre 1834)

« ... [الأمير] طلب أيضا أن يرعى على حسابه حوالي ثلاثين عربي في مارسيليا حتى يتحصلوا فيها على التعليم الأساسي لتخصصهم؛ وكان سيتم استبدالهم فيما بعد بعدد أكبر» (Desmichels L.A., Op.).

هذا التصرف المتناقض من أعلى سلطة فرنسية، لم يكن ممكن تفسيرها بأنها قرار شخصي محض، لكنها كانت تعكس موقف السلطات الفرنسية التي لم تفتأ تردد وقتها لمن كان يستمع لها، بأن عمليتها في الجزائر تندرج في إطار المهمة الحضارية.

في رسالته لملك فرنسا لويس فيليب أواخر ديسمبر 1839، عند خرق معاهدة التافنة وعودة الحرب، استعاد الأمير فكرة التعاون الذي اعتبره لبنة لأي علاقة وديّة دائمة: «ثم يقال أنني عدوك، أنني أريد الحرب بأي ثمن، أنا الذي يريد بكل الوسائل تقليد قدوة أمتك المصنعة؛ الذي رغم هذه البداية العدائية، يسهل وصول كل منتوجات بلدي إلى أسواقكم، الذي يحيط نفسه بالأوروبيين الذين يمكنهم إحضار الصناعة لي، والذي يعطي الأوامر الأكثر قسوة حتى يستطيع تجارك وعلمائك العبور بك سلامة أراضي وحتى لا يلقون إلا على الاستقبال الجيد.» (De Testa I., Recueuill des Traits de la porte ottomane TI, Amoyt Ed. Paris 1864, p. 472)

كانت تنبؤات الأمير صحيحة، فلم تدم معاهدة ديميشال سوى ستة عشر شهر، فاستبدال الجنرال ديميشال بالجنرال تريزال قام سريعا بمحوبريق تفاهم كان الأول قد أقامه بشق الأنفس، لقد جاء تريزال كمغير لم يقم أية اعتبارات لإلتزامات سابقه رغم أنها كانت مصادقة من طرف الحاكم العام ومقبولة من طرف الملك، فأمضى معهدة مع قبائل الدوابر والزمالة في جوان 16 1835، في المكان المسمى الكرمة، الموجود في مخرج وهران، والذي يسمح للقبائل أن تكون تحت حماية فرنسا، في خرق واضح للمادة 3 من معاهدة ديميشال. القبيلتين اللتان

كانتا تشكلان دعامة للأتراك كانتا تريدان استرجاع هذه المكانة وأن تصيرا المخزن الخاص بالفرنسيين، لقد تخلت عن أراضيها وجاءت لتستقر في مسغرين، في المروج القريبة من وهران، أين بنى الفرنسيين حصنا لحمايتهم.

معتدا بنفسه، خيّم الجنرال تريزال الذي خرج من وهران في 16 جوان، مرورا بالكرمة في 19 جوان على ضفاف وادي تلالات. وكان على رأس قسمة تحتوي على حوالي 2500 رجل، ستة عشر عربة مملوءة بالذخيرة والمئونة وسبعة مدافع الجبال دون حساب السيارات النظامية، معتدا بقوته، كتب للأمير، آمرا إياه بإعادة النظر في اعتقال مصطفى بن إسماعيل شيخ قبائل الدوابر، وبالتخلي التام عن السيادة ليس فقط على القبيلتين اللتان دخلتا تحت لواء فرنسا بل أيضا عن كواغلة تلمسان، كما كان يجب على الأمير أن يتخلى عن كل ملكية للأراضي الشرقية لواد شلف.

ودائما مدفوعا بإرادته لتجنب عودة الحرب، كان الأمير يسعى إلى تجنب أي عذر الذي من شأنه أن يشعل فتيلها، فنشر لهذا السبب، الأوامر الأكثر تشديدا: يمنع في أي ظرف من الظروف أن يطلق أي عربي النار على فرنسي، إلاّفي حالة الدفاع عن النفس، واضطر بأن يكتب لتريزال ليشجب بشدة عن الإجراء الذي اعتبره خرقا فادحا لمعاهدة ديميشال، أين التزم الفرنسيون بعدم استقبال اللاجئين القادمين من القبائل وبإرسال الهاربين العرب، مع إهمال أفعالتريزال في مسائل أخرى.

وقد أجابه تريزال بأنه لا يطلب إلا الالتزام بالمعاهدة، لكنه حاولأن يشرح أن كلمة «الفارين» لم تكن تقصد إلا الحالات الفردية ولا يمكن ردها إلى قبائل كاملة تفضل السلطات الفرنسية على سلطته. معتبرا أن معنى المعاهدة يأتي من هذه الزاوية، وعلى ذلك يضيف أنه لا يستطيع حرمان الدوابر والزمالة من الحقوق التي تحصلوا عليها.

ومقبل سوء نيته تلك أجابه الأمير بجفاف:

«تعرفون الشروط التي وضعها الجنرال ديميشال معي شخصيا، قبل مجيئكم إلى وهران، والتي وعدت أنت بنفسك باحترامها، وتبعا لهذه الشروط كل عربي يهرب إليكم ليجد مأوى وحماية، بعد أن يقوم بجريمة، يجب أن يرسل إليّ، سواء تعلق الأمر بشخص واحد أوأكثر ألا يعتبر طلبي أكثر تأسيسا عندما يتعلق الأمر بقبائل كاملة فارة ومارة إلى جهتكم؟!»

«الدواير والزمالة هم رعاياي، وطبقا لقوانيننا أنا أمتلك الحق في التعامل معهم كيفما يبدولي، إذا رفعتم عنهم حمايتكم، إذا أعدتموهم كما السابق تحت سلطتي، فكل شيء سيكون على ما يرام أما إذا حدث عكس ذلك وواصلتم خرق التزاماتكم، فعليكم أن تطلبوا قنصلكم في معسكر، لأنه حتى لوكان الدواير والزمالة يقبعون خلف أسوار وهران، فلن تتركهم قبضتي، ماداموا لم يعلنوا توبتهم ويصلحوا خطأهم.»

«حتى أن ديني يمنعني من السماح لمسلم بأن يبقى تحت سلطة مسيحي، أنظروا ما يلائمكم وإلا فيقضي الله بيننا.»

لم تترك لهجة الأمير أية ريبة، بينما كان تريزال قد تقدم وأكد خرقه للمعاهدة دون الإعلان عن ذلك، إذ قام فرسانه بسبب قلة العلف بالهجوم على غلة حشم غرابة، القبيلة التي ينحدر منها الأمير لم يصبح ذلك مجرد استفزازا بل فعل حربي. فحرك عبد القادر قواته ودفع بهم إلى لقاء تريزال الذي أقام مخيمه على ضفاف الوادي، وكانت قوات الأمير حينها تحتوي على ألفي فارس وثمانمائة جندي مشاة.

وبينما كان الأمير يلاحظ كان تريزيل يقوم باستعراض قوته، كانت أعمال الحصاد قد انتهت لتوها وبدأ الفرسان بالتوافد إلى معسكر الأمير.عندما رأى تريزال أن مخيم الأمير ما ينفك يتزايد وأن مؤونته بدأت تنضب قرر العودة أدراجه إلى وهران، لكن الأمير لم يكن يشاطره الرأي فانفجرت أولى المعارك في 22 جوان 1834 وتتابعت خلال أيام

ممتالية، انهزم الجيش الفرنسي فيها كليّة، وقد وصل الناجون بصعوبة إلى أرزيوومنها تم نقلهم إلى وهران عبر البحر.

أحداث كثيرة ستدفع بالأميرإلى تبني خطة جديدة لمقاومة العدو، معركة المقطع ونتائجها على فرنسا جعلت منها عارا، فأرسلت إلى معسكر جيش احتلالي بحجم ذالك الذي أغار على مدينة الجزائر، مكون من أربعة أقسام يحتوي كل قسم على أكثر من ثلاثة عشرة ألف رجل، معسكر يهرجرها أهلها بينما يجتاحها الجيش الفرنسي ويحرقها.

لقد بدأ الدفاع عن مدن التل في وجه جيش عرمرم أمرا مستحيلا وبديهيا عند الأمير، وقدأكد رأيه سقوط قسنطينة بعد مدة قليلة، ما دفع به إلى التراجع عند حواف التل، حتى يضع أسلحته وترساناته في مأمن، ولينجح في ذلك كان عليه أن التخلي عن مدن التل وجعلها غير قابلة للسكن، حتى لا تستخدم كمناطق استراحة لصفوف الفرنسيين الثقيلة، لكن غالبية السكان لم يقاسموه وجهة نظره وأصروا على المحافظة على مساكنهم.

أفكاره التي بدأ بتسييرها منذ معاهدة ديميشال ستأخذ شكلها النهائي مع الهدنة التي جاءت بها معاهدة التافنة.

هذه الهدنة الجديدة منحته فرصة تطبيق خطته الجديدة، تنظيم تحصيل الضرائب هو ما سيوفر التمويل الضروري لهذه المرحلة الجديدة، وقد دخل الأمير في هذه السياسة الجديدة منذ 1836 أي قبل إمضاء معاهدة التافنة، فمنذ معركة سكاك صار الجيش الفرنسي لا يبحث على المواجهة المباشرة، بل بقي داخل معسكراته، الأمر الذي منح الوقت للأمير للاهتمام بـ»داخله». فذّكر القبائل الخارجة بضوروة الانضواء تحت نظامه، أعاد إلى الطريق المستقيم تلك التي أظهرت بعض التراخي تجاهه وأكمل بناء هياكل الدولة.

كان كل شيء مستعجل في نظر الأمير، لكن بعض الضروريات أكثر أولوية من الأخرى: تنظيم الجيش وإنشاء صناعة حربية.

بدأ بتكوين جيش نظامي ثم اتجه إلى تموينه وتسليحه:» بتحفيز من الأمير عبد القادر، أنشأت معامل للمعادن، مسابك للمدافع وللخرطيش، منجم الحديد زكار صار في الخدمة: طواحين رأت النور، حوانيت وتحصينات شُيّدت.

كانت النشاطات الجديدة على بساطتها وتوجهها أساسا إلى حاجيات الحرب قد أعطت ألقا لمدن طالما بقيت في سبات عميق: تازة، بوغار، مليانة وخاصة تاقدامت.

لقد صك الأمير النقود، أنشأ مستشفيات عسكرية، أسس مكتبة في تاقدامت وإذا صدقنا «تحفة الزائر» الكتاب الذي ألفه ابنه فقد أعفى المعلمين من الضرائب، وكان مشهو د له اهتمامه بالتجارة الداخلية بقدر اهتمامه بالخارجية، وكذلك إقامة احتكار الدولة لهذه التجارة التي سيضمن مراقبتها من أرزيو. لقد كان عبد القادر يمتلك موهبة لا يرقى إليها الشك في القدرة على التنظيم، مدعومة بإرادة حقيقية في تطوير الشأن العام.

كان من أهداف الدولة الجزائرية، الانتظام في الخدمة العمومية، إرادة التوحيد وتنظيم اتحادي لا ينفي المركزية، نهاية العداوة المحلية والجهو ية، التخفيف من مختلف التنظيمات القبلية، القضاء على الامتيازات، والمصاحبة المتشددة للسلطة والألقاب بالترتيب الهرمي الإداري وكذلك تطوير اقتصاد حديث (Koulaksis A et Meynier G., Op., Cité. p.36.)

«من أجل تسريع تنظيم وحداته، أمر الأمير خلفائه وكل زعماء القبائل بأن يحضروا له أسرى الحرب الأذكياء، وقد رحب بشكل جيّد بهؤلاء الذين اقتيدوا إلى مقره العام، وقد استخدمهم في التعليم في تدريب كتائبه الجديدة.

الحاجة إلى مدربين كثيرا ما دفعته إلى إرسال مبعوثين إلى المعسكر الفرنسي لتوظيف غير الراضين وجذبهمإليهمن خلال ربطهم بوعود رائعة.

وكان هدفه الأساسي العمال من كل صنف وخاصة الحدادين، السباكين، صناع البارود وغيرهم، لقد زار الأمير ترسانات ومعامل الإسكندرية وكان يرى أن البدوليسوا أقل شأنا من المصريين في شيء.»
(Histoire pitoresque de l'Afrique Française, Renauld Ed,1845)

حمدان خوجة من مواليد مدينة الجزائر في 1189ه الموافق لـ1773م، في فترة حكم عثمان باشا، هو من علية القوم من ناحية مدينة الجزائر معروف جدا، أبوه عثمان كان فقيها وخاله الحاج محمد، أمين السكة (وزير المالية)، بعد مدة قصيرة من عمله كمدرس لعوم الدين اتجه إلى التجارة التي مارسها مع خاله، هذا العمل الجديد أثار إعجابه اذ سمح له بأن يسافر كثيرا إلى أوروبا، الشرق الأوسط وخاصة القسطنطينية، وقد أقام الكثير من العلاقات في كل البلدان التي زارها واستطاع أن يكون ثروة شخصية كبيرة جعلت منه رجلا جزائريا مهما، وقد صار شخصية مثقفة ومهمة.

بعد الاستيلاء على مدينة الجزائر، حاول مواصلة المقاومة بمساعدة إخوانه المسلمين الذين لا يتحدث الفرنسية إلا ثلة قليلة منهم، وقد تم تعيينه كعضوفي المجلس المحلي لمدينة الجزائر، المنصب الذي استغله لإيقاف أوإبطاء استيلاء الفرنسيين السلطات الفرنسية على المساجد وأماكن العبادات الأخرى في مدينة الجزائر.

كما شغل أيضا منصب عضواللجنة التعويضية للأشخاص الذين تعرضت أملاكهم للمصادرة بحجة الفائدة العامة والذين لم يعوض أغلبهم عنها أبدا، لأن اللجنة قد حلت في وقت قصير.

وقد طالبه الدوق روفيغوللقيام بدور الوسيط مع أحمد باي الذي كانت صداقة قوية تجمعه به، الدور الذي لعبه حمدان خوجة سواء على المستوى السياسي أوالاجتماعي، والذي جعل منه قائدا الأمر الذي لم يستسغه الكثير من العسكريين الفرنسيين.

وقد اعتدوا عليه بشكل مباشر اذ صادروا أملاكه بما فيها أراضيه وإقامته الثانية دائما بذريعة الفائدة العامة ولكن في الحقيقة كان ذلك لإحراجه أمام مواطنيه:» كان يغذي ضد الفرنسيين كراهية ما استوجب أن يشعر أكثر من أي شخص آخر بالإحساس بالضعف.»
(Pélissier E., Annales algériennes, 1er t., Philippe Libraire, Marseille, 1836)

نفى كلوزال ابنه حسان إلى الإسكندرية في السادس والعشرين من سبتمبر 1836، ويحتمل أن تكون هذه الإجراءات قد اتخذت لإجباره على السكوت، لأنه قد أرسل إلى الجنرال سولت وزير الحرب أي القائد الحقيقي للاستعمار، مذكرة تكشف التجاوزات التي يقوم بها العساكر الفرنسيين بالجزائر وفي نفس الوقت نشر في باريس (1833) كتاب مهم معنوَن ب» المرآة» والذي يصف من خلاله الوضع السياسي، الاجتماعي، الاقتصادي والثقافي للجزائر في الفترة، ولكنه يرافع أيضا ضد الاستعمار:» نشر ضد إدارة مدينة الجزائر، كتابا ذكر فيه بين كثير من المبالغة والكذب، أكثر من حقيقة متهمة لها.»
(Pélissier E., Annales algériennes, 1er t., Philippe Libraire, Marseille, 1836)

كان استجواب الجنرال سكوت سببا في إنشاء اللجنة الإفريقية للتحقيق في الوضعية في الجزائر، وقد قام بعدد من المساعي عند الحاكم العسكري لاستعادة أملاكه، ولكن بدون فائدة، ثم ذهب إلى باريس حتى يسمع صوته عند سلطات أعلى شأنا.

وقد التمس في ذلك دعم ممثل الباب العالي في باريس، ثم لجأ مباشرة إلى السلطان العثماني، حتى يطالبه بالتدخل لمساعدة الشعب الجزائري.

وبعد أن تعب من كل تلك الإجراءات ذهب للاستقرار في اسطنبول عام 1836، وقد لقي ترحيبا جيدا في بلاط السلطان.

كتب مؤلفا حول الحجر كطريقة لمجابهة الطاعون والذي عنوه بـ « هدف المنصفين» وأعطاه للسلطان.

في هذا الكتاب أظهر حمدان خوجة معارفه الطبية الواسعة، كما كتب بنفسه في هذا الكتاب الأخير: « نحن لا نقول أن الوباء، ينتشر فقط عبر العدوى أوالانتشار، فقد تكون هناك أسباباأخرى ومع هذا فهذه الاسباب نادرة، نقول أنها ممكنة وليست أكيدة، وتبعا لما تعلمناه من كتب الطب، فان تحلل الأمزجة وكبر الانسدادات تسبب أمراضا ونظما معروفة، ربما عند بعض الأشخاص الانسدادات تكون خطيرة لدرجة أنها تؤثر في كل ما يحيط بها، لأجل ذلك فكرنا بأن الوباء يمكن أن تكون له أسباب أخرى...»نشر هذا الكتاب مؤخرا في الجزائر من طرف تابليت.

هل كان مستشارا لدى السلطان فيما يخص شؤون الصحة؟ لا يوجد سوى القليل من المعلومات عن هذا الجزء من حياته سوى انه مات بين 1840 و1845، وإضافةإلى أهم مؤلفين عنده، فقد ترك حمدان خوجة أعمالا أخرى تظهر في كتابات السير الذاتية والمراسلات]

الفهرس

مقدمة 5
الأمير: رجل منفتح على زمانه 8
دولة وجيش الأمير 22
التنظيم العام للدولة 23
تنظيم الجيش 24
الكسوة والتسليح 26
اقتصاد الحرب 28
الأمير ينجح في استعادة الروح الوطنية 29
العملة والتجارة 31
صك النقود 31
التجارة الخارجية 35
استيراد السلاح والمواد الحساسة 35
تصدير القمح 40
مدن، حصون، بروج ومعسكرات 43
المدن: 44

– معسكر 44
– مليانة 45
– المدية 46
– تلمسان 46
الحصون العسكرية 47
بوغار 48
تازة 49
سعيدة 52
تافراة 54
تاقدامت 55
البروج: 58
–حمزة 58
– بني سنوسي 59
–بلاّل 59
– شرشال 60
– دلس 60
– تنس 61
المعسكرات 61
– معسكر بوخرشفة 61
الصناعة الحربية: 63
الصناعة الجزائرية قبل الأمير 64
المستخراجات المنجمية 66
معامل البنادق 68
مطاحن البارود 72
معامل الخراطيش 73
إنتاج عيارات الرصاص 74
إنتاج قوالب عيارات الرصاص 74
مسابك وصناعة المدافع 74
صناعة المتفجرات والقذائف 79
صناعة الحاملات والعربات 79
صناعة الأحذية 79
صناعة الأقمشة واللباس الحربي 79
مطاحن الحبوب 80
وصول الفارين 83
كم كان عدد الفارين في معسكر الأمير؟ 85
قوانين الأمير المتعلقة بالفارين 87
تطبيق تعليمات الأمير على الواقع 89
فارون فرنسيون بين نظاميي عبد القادر 91
المدربون 93
– فرانتس جايستينجر أوحميدو 95
الجنود والضباط 107
دومولان أوعبد الله 108
مونسال أوموسى 110
المشاة 119
جان ماريديلان 121
ألكسندر أوسير أويوسف 122
الأبواق والطبول 126
فارون معيّنون في الصناعة 129

دون خوسي 130
شوفال أوعبد الله 131
ايلسان أومصطفى 138
آلكيي كازيس أوعبد القادر 141
هل يبقى الفار خائنا إلى الأبد؟ 145
الأمير واليهود 151
التجارة ومختلف التبادلات 152
تجارة الأسلحة والذخائر 157
مهمات الجوسسة 158
الدبلوماسية 158
جودا بن دوراند 160
علاقة الأمير مع المسيحيين 171
الميدان العسكري 171
– العقيد سكوت 171
– من كان العقيد سكوت؟ 175
الميدان الدبلوماسي 180
السيد جافاراني أوكاساماني 182
الميدان الصناعي 180
السيد جيومان 182
الميدان التجاري 184
جاهان جيارتيز 184
خوان سجيتوكويتش 184
أودريك 185
رومان بويغ أي موندو 185
بارثيلو 185
لاكروتز 185
الإخوة مانوسي 186
ميدان الجوسسة 189
ليون روش 190
الأمير والزوار، المبعوثون والديبلوماسيون الفرنسيون 199
عبد الله الحسبوني 200
ماري جيوم جيرب 201
نارسيس مينوفيل 201
أوغيست وارنيي 207
ميلشيور، جوسيف، أوجين دوماس 207
زوار معسكر 209
المراجع 212

علاقات الأمير عبد القادر مع اليهود

لم يقم الأمير يوما بإجبار شخص من ديانة أخرى على الدخول في الإسلام، سواء كان فارا أو سجينا، صحيح أن كثيرا من الفارين فضلوا إظهار دخولهم في الإسلام، حتى يحصلوا على عدد أكبر من الامتيازات، لكنهم لم يجبروا أبدا على القيام بالعبادات الإسلامية، ولحمايتهم أكثر أصدر الأمير فتوى تحتوي على عدد من القوانين تنظم تصرفات العرب المواطنين والجنود تجاه الفارين الذين يلتقونهم، فقد كان مسموحا لهم بالتدخين في حين كان ذلك ممنوعا على المسلمين، ولم يكن لمن أراد أن يحتفظ بعقيدته أية معاملة خاصة.

9 789947 216316